النكتة الصهيونية

محمد أبو خضور

دار الحكمة
للطباعة والنشر
الطبعة الأولى
م 1990

الفكاهة اليهودية

لقد درس ريك Reik نماذج من النكات التي تتجه نحو معاقبة النفس والقصاص من الذات أو الذي يتجه نحو إدانة الآخرين واضطهادهم دون أدنى رحمة أو شفقة.

وفي بحثه المخصص للفكاهة اليهودية التي تنطوي في معظم الأحيان على نوادر ونكات تدور حول اليهود أنفسهم اما باعتبارهم شعباً أو باعتبارهم أفراداً، وكان فرويد قد سيق هذا الباحث إلى دراسة بعض نماذج للنكتة اليهودية فانتهى من بحثه إلى القول بأن بني اسرائيل هم في فكاهاتهم من أكثر الناس في العالم انتقاداً لنفسهم. Auto – Critique .

وهذا ما يؤكده ريك مرة أخرى حين يقرر أن النكتة اليهودية تنطوي على شعور بنقائص الذات وعيوب النفس. وكأن الأنا الأعلى عند اليهودي يريد أن يدعو الأنا إلى إلقاء بعض النظرات النقدية على المثالب والنقائص الكامنة في أسلوب المعيشة وطريقة التعامل لدى اليهود . ولكن وراء هذه الروح النقدية التي تعبر عنها النكتة اليهودية تكمن ميول عدوانية حادة ضد النفس. وهذه بدورها تكشف عن ميول عدائية قوية ضد الشعوب الأخرى. إذ أن هذه الشعوب هي التي تسببت في ظهور تلك النقائص اليهودية!!

والواقع أن اليهود، إذ ينتقدون أنفسهم في نكاتهم إنما ينتقدون خصومهم مثلهم في ذلك كمثل الشخص السوداوي. Melancholque
الذي يتجه نقده الذاتي – كما لاحظ فرويد لا نحو ذاته، بل نحو الموضوع المُبغَض الذي امتصه واستدمجه في ذاته.

وقد شرح (ريك) الآلية السيكولوجية التي تقوم عليها هذه العملية فسرد علينا قصة ذلك اليهودي الذي جلس إلى مائدة واحدة يلعب القمار مع أحد الأشخاص .فظل يغافله ويسرق ورق اللعب، دون أن يفطن إلى ذلك زميله. وأخيراً ضاق اليهودي نفسه ذرعاً بهذا الوضع فانفجر صائحاً في زميله" يا لك من أحمق، حتى تقبل اللعب مع شخص.. ارتضى أن يلاعب شخصاً مثلك "!ففي هذه النكتة يتوقع السامع أن يقول اليهودي: "حتى تقبل اللعب مع شخص مثلي" ولكن خاتمة النكتة هي التي تكشف لنا عما فيها من وخز، لأن عدوان اليهودي لا يرتد إلى نفسه، بل يتجه نحو زميله في اللعب، باعتباره مسؤولاً عن تماديه هو (أي اليهودي) في الفشل.

وقد تكون النكتة أحياناً وليدة فهم حرفي للكلمات، فتستثير الضحك لما يكمن وراء هذا الفهم الحرفي من دلالة سيكولوجية، كالنكتة التي يرويها فرويد عن يهودي سئل يوماً" :هل أخذت حماماً؟" فما كان منه إلا أن أجاب "كلا، ولكن لم؟ هل فقد واحد؟."

وهذا الرد ان دل على شيء فإنما يدل على أن صاحبه خص يهتم بالكسب أكثر مما يهتم بالنظافة، بدليل أن أول معنى قد تبادر إلى ذهنه هو فهم كلمة "يأخذ "بمعنى "يسرق."

الدلالة الاجتماعية

النكتة هي السيف المصلت الذي تسلطه الجماعة على رقاب الخارجين على معاييرها الجمعية، وكل ما تحدثه نفسه بالخروج عن قوانين الجماعة وأساليب سلوكها، فإنه لا بد أن يستهدف لسخريتها اللاذعة وضحكها

الموجع.

حينما تسخر الجماعة الواحدة من غيرها من الجماعات فإنها تحافظ بهذه السخرية نفسها على صميم كيانها الاجتماعي، ولكن إذا كان للضحك صبغة محافظة من حيث هو أداة نواجه بها الأجنبي فإنه على العكس من ذلك قد يقوم بوظيفة النقد والاصلاح بالنسبة إلى الجماعة ذاتها، لأنه بسخريته يعمل على خلق جو جديد في صميم الجماعة .

ولا يغرب عن بالنا أن للنكتة وظيفة اجتماعية نافعة لا باعتبارها أداة محافظة تضمن بقاء التقاليد ووسيلة نقد، وإنما باعتبارها أيضاً وسيلة فعّالة لتحقيق ضرب من التغير الاجتماعي ووسيلة تنفيس عن الضمير الجمعي.

إن لكل مجتمع طريقه في الدعابة وأسلوبه في التفكه وأنماطه في اطلاق النكتة والضحك لها. وهذا ما حدا ببعض الباحثين إلى دراسة أخلاق الشعوب من خلال نكاتهم، وان من المؤكد أن الفكاهة هي خير مرآة تنعكس عليها أحوال كل مجتمع وما مر به من أحداث، وما اكتسب من مقومات وما اندمج في خلقه من سمات.

في النكتة الاسرائيلية في المرحلة الأولى التي سميناها بفترة التضخم – وتبرز سماتها خاصة عام ١٩٦٧ – نجد أخلاق العدوان والعنف والغرور والصلف والاستخفاف بالعرب، واصباغ اللامنطقية على الفكر العربي وتصوير الانسان العربي كشخص جبان.

بينما نجد في الفترة الثانية من تطور النكتة الاسرائيلية نقداً للذات، وابرازاً لقيمة الآخر بل والتحسب له. كذلك نجد أن النكتة الاسرائيلية خلال فترة الدونية التي ابتدأت بحرب تشرين عام ١٩٧٣، تتعرض بالنقد والتجريح بل والسباب إلى الحكومة الاسرائيلية وقادة الجيش وتتمنى الخلاص منهم.

ونلمس في هذه النكات لمسات واقعية لادراك الزمن، وذكاء في تحويل موضوع النكتة المنحدرة من جذور ثقافية غريبة حملها معهم المستوطنون من بلادهم التي ولدوا فيها كألمانيا أو الولايات المتحدة الأمريكية.

إن ما نود قوله هو أن الصراع الطبقي يخلق النكات الاجتماعية، والقهر السياسي يولّد الكثير من النكات السياسية، والوضع الاقتصادي المتردي يعمل على ظهور الكثير من النكات العدوانية. وقد وجدنا كل هذا في النكتة الاسرائيلية.

الحرب والنكتة

من خلال دراستي للنكتة الاسرائيلية بعد حرب تشرين ١٩٧٣ وجدت أن النكتة في المرحلة التي تلت الحرب ولمدة عام واحد أي لعام ١٩٧٤ كانت تدور حول خمسة موضوعات رئيسية:

1-ضرورة سقوط الحكومة.
2-الموت والتشويه.
3-السرقات الاقتصادية.
4-عدم الكفاءة في ادارة دفة الحرب، والاستهزاء من قادة الجيش.
5-حول الهجرة المضادة.

أما مناحي التغيير في النكتة الاسرائيلية خلال الفترة ذاتها فقد كانت كالتالي:

1-جميع النكات الاسرائيلية خلال الحرب وبعدها (نقصد حرب تشرين) قلما تميل إلى تصوير العدو (الذي هو نحن الشعب العربي) بصورة الخصم الضعيف. وها يفتح مجالاً للمناقشة من أن روح النكتة ليس من الضروري أن تؤدي إلى اضعاف روح الجد لدى الجماعة. وهذا سببه كما نحب أن نؤكد الخوف من استمرار سريان روح الاستهتار التي اتسمت بها النكتة الاسرائيلية قبل تشرين.

2-ظهر قدر كبير من النقد والنقد الموجه في النكتة الاسرائيلية.

-3اختفت مظاهر العداء نسبياً بين الفئات الاسرائيلية التي كانت تكشف عنه نكاتهم العديدة قبل الحرب.

-4اتصفت النكتة الاسرائيلية أثناء حرب تشرين وبعدها إلى مدى عام واحد تقريباً بصفة النكتة الفظيعة. والنكتة الفظيعة هي نتيجة مباشرة للخوف، والخوف هو ترقب. وتشكل النكتة الفظيعة، على الصعيد النفسي، حلاً لتحييد الخوف مثلما هي في الوقت وسيلة للتنفيس.

ازدهار وهبوط النكتة في اسرائيل

يقول الباحث الاسرائيلي عمانوئيل بار "فكما نشهد في هذه الأيام يخيل لنا أن نهاية كل تراكم ضخم من الاسى والحزن عندنا، نحن اليهود، أن "ينفجر" بـ" نوعية جديدة" من السخرية والنكات. ان النكتة الفظيعة تتحول عندنا إلى تابع ثابت للفظاعة نفسها. وهي في المقابل ، ليست طبعاً من امارات السعادة واتساع المعرفة."

أما عالم النفس الاسرائيلي افرايم لهمان فيقول: "الفكاهة هي دائماً وأبداً دليل الحيرة. إنها متنفس للتوتر، الذي ينشأ على أساس من الحيرة، فيها الفكاهة هي الحالة التي تتغير فيها بشكل عنيف المعايير الاجتماعية، ولا يدري الانسان بالضبط كيف أو يخشى أن يرد بشكل لاذع وغير مألوف. وعلى ذلك فإن النكتة هي تعبير عن رد مختلط الشعور. فهي من جهة تعبر عن موقف من الظاهرة، ومن جهة ثانية تعبر عن الموقف بصورة فكاهية (أي) غير ملتزمة حتى النهاية."

وأوري سيلع، وهو كاتب وصحفي اسرائيلي يحدد فترات النكتة الاسرائيلية بأربع فترات:

الفترة الأولى – أواخر الانتداب البريطاني (١٩٤٦ – ١٩٤٧) حينما ازدهرت النكتة الساخرة. وكانت الفكاهة موجهة في معظمها ضد البريطانيين .

مثال :بعد اعتقال رؤساء البلديات "اللطرون هي أكبر مدينة في العالم. حقيقة: في نيويورك يوجد رئيس بلدية واحد، وفي اللطرون ثلاثة."

أو :يهودي يعاني الامساك، يدخل إلى صيدلية، ويطلب ملحا انكليزياً. فيقول له الصيدلي :جننت؟ هل رأيت مرة انكليزياً، دخل إلى أي مكان ثم خرج منه بإرادته؟.

الفترة الثانية :فترة التقشف – كانت فترة طويلة من النكات.

قصة يهودي، وقف أمام بيت (بن غوريون) وهو يأكل قثاء. خرج إليه بن غوريون، ووضع في يده بضع ليرات لكي يذهل إلى المطعم .كرر اليهودي عمله عند بيت (موسى شاريت) الذي أعطاه أيضاً عدداً من الليرات ليقيم بها اوده. ذهب اليهودي، وهو ما زال يأكل قثاء إلى بيت دوف يوسف وزير التقشف) كان وقتها وزيراً للتموين .(خرج إليه يوسف وقال له:
"جننت؟ قثاء تأكل في الشتاء! كل الآن عشياً أخضر".

وهناك نكتة اليهودي الذي دخل إلى المطعم وسأل:
ما عندكم من الطعام؟
فأجاب النادل: "ماذا يريد سيدي، ذكراً أم أنثى؟"
اليهودي: ماذا تعني؟
النادل: "لبناً أم لبنية؟."

وشاعت أيضاً آنذاك النكتة القائلة بأن الحاخامية سمحت بأكل النقانق مع الجبنة. ذلك لأنه ليس في النقانق لحم. وليس في الجبنة حليب!

وهذه النكتة نفسها تروى الآن في "اسرائيل" بتطور آخر :سمح الحاخام (غورن) بالسير يوم السبت مع ورقة مالية من فئة المئة ليرة .لأن هذه ليست نقوداً... وأيضاً يخرج اليهودي من جيبه ورقة مالية من فئة المئة ويرميها لصديقه: "هل رأيت ورقة العشر ليرات الجديدة) ."نكتة عن التضخم المالي.(

الفترة الثالثة هي: فترة الركود. وهذه الفترة يقول عنها أوري سيلع كانت فترة " كل نكات اشكول" التي نذكر منها " من يخرج الأخير من اللد فليطفئ النور."

ورووا أيضاً عن (بنحاس سابير) أنه وصل إلى نيويورك فالتقى بمتسول فقذف له فلساً. أعاد له المتسول الفلس وقال:
"من رفاق المهنة لا آخذ نقوداً."

وهناك نكتة كلاسيكية من أيام الركود:
"حسناً، ماذا سيكون؟" يسأل اليهودي.
"لن يكون.. " لن يكون؟
"لن يكون .. لن يكون هناك ما نأكل، لن يكون هناك ما نشرب، لن يكون هناك ما نلبس. ببساطة لن يكون."...

والفترة الرابعة وهي الأخيرة يسميها أوري سيلع فترة "حرب يوم الغفران وهي فترة لم تنته بعد. إنها ما زالت مستمرة وتشكل فيها الأحداث اليومية حلقات في سلسلة واحدة. فقد الثقة بالزعامة، التقصير – ليسا ، سوى بعض الموضوعات التي ما زالت تشغل الرأي العام" وصمامه الفكاهي."

وقد رأينا من خلال دراستنا للنكتة الاسرائيلية أن ميزات الفترات الثلاث الأولى والثانية والثالثة تتسم بصفات تكاد تكون مشتركة. إذ تجمعها سمات التمركز الفردي، والقاء المسؤولية على الآخر، والغرور والامتلاء والتضخم وخاصة بعد حرب الخامس من حزيران عام ١٩٦٧، ولم تقتصر النكات في هذه الفترات على الخبز والصعوبات الاقتصادية، بل تعتبر فترات ازدهار حقيقية للنكتة الاسرائيلية السوداء ضد العرب. فترات ازدهار لنكتة الصلف والعنجهية وتصور اسرائيل (سوبرمان) المنطقة. ولذا دمجنا الفترات الثلاث بفترة واحدة سميناها "فترة الامتلاء."

أما الفترة الرابعة التي سماها أوري سيلع "فترة بعد حرب يوم الغفران "والتي قال عنها "ربما كانت هذه هي المرة الأولى في جميع فترات الضيق التي مرت على دولة اسرائيل التي ترتدي فيها الفكاهة رداء مصيرياً حقاً. وذلك على ما يبدو لأن المقصود في جميع فترات الضيق، كان الخبز والصعوبات الاقتصادية. أما هذه المرة – فهو الحياة حقاً. الاعتراف بأن دولة اسرائيل لا تواجه واقع نقص مادي، بل تفيق من الصدمة التي كانت مرتبطة، خلافاً لكل ما اعتاد الناس على التفكير به، بقصور أمني وباحتمال تعرض الدولة للخطر من جراء الانتصارات العسكرية التي أحرزها العدو."

هذه الفترة سميناها "فترة الدونية" أي خفض القيمة. فنكتة فترة الامتلاء والغرور إبان غرور الأيام الستة:

*موشي دايان يدخل صباحاً على رئيس الاركان سائلاً:
"ماذا نفعل اليوم؟"
رئيس الأركان: "لعلنا نحتل بلداً عربياً ما؟"
دايان: " وماذا نفعل بعد الظهر؟"

*ماذا نحتاج لاحتلال الجزائر في نصف يوم؟
-أمر...

*قال الرئيس الأميركي جونسون لاشكول:
"أعطني كتيبتين من الجيش الاسرائيلي لأحل جميع مشكلاتنا في الشرق الأقصى."...
أشكول: "كتيبتان؟ كتيبة واحدة تكفي."...

جونسون: "أنا أعني جميع المشكلات، بما في ذلك الصين الشعبية."..

*الرئيس الأميركي جونسون لاشكول: تعطوننا جنرالين لانهاء حرب فييتنام ونحن نعطيكم جنرالين من عندنا، "جنرال موتورز والكتريك"

نكات فترة الامتلاء والغرور هذه قابلتها في الفترة الثانية، فترة الدونية النكات الفظيعة مثل:

" *من يخرج الأخير من البلاد، فليطفئ الضوء."

" *ما بقي من خط بارليف؟
-فيلات المتعهدين."..

" *القيت قنبلة على جلسة الحكومة. قتل الجميع. الخسائر لاشيء."

" *اشترت اسرائيل حاملة طائرات – لكي يكون هناك مكان للهبوط بعد إعادة اللد."

" *اتخذت الحكومة قراراً بنقل رفات بن غوريون إلى البلاد."

" *لا يحتمل وقوع انقلاب عسكري في اسرائيل، لأنه ليس هناك من تؤخذ منه السلطة."

" *عندما نموت سيدفنوننا في تلال الجولان."

" *لماذا لا نحتل الاهرامات؟
-لأنه ليس لها مكان كاف في فناء منزل دايان."

" *ما هي سيارة المستقبل؟
كرسي – عجلات."

"*لحظة وننتهي."!

وقد ولدت صدمة حرب تشرين عام ١٩٧٣ ، كما بات واضحاً نكاتاً قاسية ورهيبة مثل:

" *ماذا يغني الطفل حين يأتي والده في إجازة من الاحتياط؟
-مازال أبونا حياً."...

" *هاتف من ضابط المدينة: حظاً سعيداً! ابنكم جريح."

أو النكتة المتعلقة بالخدمة الاحتياطية الطويلة. مثل:
" *لتعش حتى ١١٩!
لماذا؟
لكي تبقي لك سنة لإعادة التجهيزات."...
)إذا أراد يهودي أن يطلب طول العمر لزميله قال له: لتعش ١٢٠ عاماً(.

*ما هو النشيد الوطني لديان؟
"دع رئيس الأركان يذهب مكانك."..

" *لماذا حاربنا؟.. من أجل المقاولين."

"*لماذا يستطيع ديان من جديد أن يأكل فاصوليا؟
لأن الشعب لم يعد يقف خلفه."...

" *لماذا كف ديان عن خياطة البذلات لنفسه؟
لأنه يخشى أن يخزه الخياط بدبوس فينفجر البالون."...

أو فيما يتعلق بالتقصير يروى أن دادو (أي دافيد العازار) مكسّر العظام، تلقى وظيفة عند مجبّر عظام. أما اللواء ايلي زغيرا، فقد عين مدير مخابرات" واحد – أربع، سلام". كما ولّد فقدان الثقة بالقيادة الاسرائيلية أيضاً عدداً من النكات مثل:

" *لا داعي لخداع الجميع، يكفي خداع أغلبية عادية."

" *ما الفرق بين حكومة اسرائيل والحكومة الجديدة في العراق؟ عندهم – لا يوجد أكراد."

" *هل سمعتم أن المتدينين يؤيدون جري العراة؟
"كحل لتحديد من هو اليهودي؟"
)بن غوريون تساءل مرة من هو اليهودي؟ عند تعرضه لضرورة الهجرة(.

واذا كانت النكتة هي صورة الواقع، فقد كان الواقع في اسرائيل يدل على فقدان الثقة بغولدامائير وضرورة التخلص من حكومتها وليس أدل على ذلك من النكتة:

"ما الفرق بين الحادث والكارثة؟
*عندما تسقط غولدا، هذا حادث، وعندما لا تسقط هذه كارثة."

ثم كان كيسنجر محل تندر وتنكيت، مثل:
" *ما هو شعار كيسنجر؟ - فرق تسد."..

" *ما الفرق بين ايبان وكيسنجر؟
إيبان يتكلم الانكليزية بدون لكنة."

*أو يقول المتفائل" كل يوم أفضل من اليوم التالي، اليوم أفضل من الغد، وغداً أفضل من بعد غد...
وهلمجرا."

وهناك نكتة الاحتياط:

"أيها الزملاء، ستسرحون بعد ثلاثة أسابيع، لا في أسابيع هذا العام، ولا في أسابيع السنة القادمة – فقط في أسابيع السنة الثالثة."...

"قائد السرية مخاطباً الزملاء: "عندي لكم بشريان، سيئة وطيبة: السيئة: أنكم ستواصلون تناول اللوف) .نوع من المعلبات يوزع كثيرا على ضباط وجنود الجيش الاسرائيلي (.والطيبة – انه يوجد منه ما يكفي للجميع..."

توصل عالم النفس الاسرائيلي أفرايم لهمان إلى نتيجة" أن موجة النكات سيئة لليهود، فالنكتة مثل المخدر. إنها وسيلة للهرب من الواقع. أشبه بغسيل دماغ ذاتي. يحل محل التفكير العميق. إن النكتة تخلق اجماعاً وتسهّل على الفرد سبيل الاتفاق مع الجماعة. وبواسطة النكتة، يسهل كثيراً السير مع التيار وتقبل الأهداف الاجتماعية الشائعة."

يقول أولبورت، وليو بوستمان "أن كثيراً من الأقاصيص التي تنتشر انتشار الاشاعة إنما هي نتاج صريح للخيال، لا تستهدف إثارة التصديق وإنما ثارة الضحك، ومع ذلك فإنها هي الأخرى يمكن أن تعبر عن الكراهية

الاخبارية، أو تنطوي على نقد سياسي، أو تضطلع بالتنفيس عن بعض مشاعر انفعالية مقموعة، فالفكاهة والاشاعة، سواء من حيث طريقة السريان أو من حيث الوظيفة، غالباً ما تتكشفان عن تشابه ككل وتصفه باللا حكمة وباللا عقلانية مثلاً تحمل في طياتها الكثير الكثير من الفكرة المقموعة التي تتسرب في أهاب هذه النكتة.

" *يقولون عنا بأننا شعب حكيم وعاقل."
حكيم – ربما
عاقل – ليس كثيراً
مستقيم؟ لا
طبيعي؟ طبعاً لا."...

" *ما آخر كتابات زيفا يا ريف؟
لا يوجد منطق في اسرائيل."

أو الحادثة التالية: في بداية الشهر الحادي عشر عام ١٩٧٣ ذهب دايان مع مصوري التلفزيون الاسرائيلي لزيارة جنود الجيش الاسرائيلي غرب القناة، وعندما طلب المصورون من بعض الجنود الاقتراب من دايان ليلتقطوا له الصور وهو واقف بينالجنود رفض هؤلاء قائلين: "إذا سمح لنا التحرك من هنا، فلن نقترب من دايان، بل سنبتعد عنه."

وتروى نكتة عن دايان فحواها أنه غرق في بحيرة وأنقذه جندي بدون أن يعرفه بأنه دايان. وعندما أفصح دايان عن شخصيته وأراد مكافأة الجندي قال له هذا الأخير: "ليس لي غير مطلب واحد، لا تقل لأحد أنني أنقذتك.."

لماذا تنتشر النكتة ؟

أظهرت الدراسات التجريبية في نطاق الترابط بين النكتة والاشاعة، أن الشرط الأول ينحصر في أن موضوع النكتة ينبغي أن ينطوي على كثير من الأهمية بالنسبة للمتحدث والمستمع. لأن النكتة تشكل بالأصل هروباً من مواجهة الواقع. أما الشرط الثاني فينحصر في مقدار التنفيس والانتقام الذي تتيحه النكتة.

إن مجتمعاً مثل المجتمع الاسرائيلي تمارس فيه سياسة التفرقة العنصرية وتتمركز هوة اجتماعية كبيرة بين طوائفه لهو مجتمع مثالي بالنسبة للنكتة والاشاعة على حد سواء. والتناقضات الاجتماعية في مثل هذا المجتمع تصبح مصدراً ثراً للنكات التي تستهدف التناقض القائم فيه، وهذا العامل السلبي بالنسبة للايديولوجية الصهيونية لا يكون مصدراً للنكات والاشاعات فقط بل يشكل "خطراً جدياً حتى من الناحية الأمنية". ولذا فان الحكومة الاسرائيلية مارست اجراءات شديدة ضد موجة النكات التي كانت تعم فلسطين المحتلة في كل أزمة سياسية.

وتدرك السلطات الاسرائيلية جيداً مدى الترابط الوثيق بين الاستقرار الأمني وتفجر التناقضات الداخلية في المجتمع الاسرائيلي، ولذا فإننا نراها دائماً وأبداً لا تكف عن التهويل "بالخطر الخارجي" وهذه السياسة تنطوي بحد ذاتها على خطر على الجانب العربي واحتمال تعرضه بين فترة وأخرى لضربات اسرائيلية الهدف منها كبت وقمع التناقضات الداخلية في "اسرائيل" والخطر الآخر هو استدامة التناقضات الداخلية (والتي تتضرر منها مجموعة فئات مسحوقة موقعها الطبقي ضد الحكومة الاسرائيلية) بدون حل جذري، وهذا ما أشار إليه البروفيسور يغال يادين الذي يحظى باحترام الأوساط العسكرية والمدنية الحاكمة في اسرائيل الذي قال "ان التغاضي عن حل التناقضات الداخلية سيكون بالنسبة إلينا أمراً ينطوي على جانب كبير من الخطورة إذا تخلينا عن إيجاد حلول لهذه التناقضات بحجة تهديدات الحرب، ان العامل السلبي المتمخض عن المشاكل الاجتماعية قد يشكل في يوم من الأيام خطراً جدياً حتى من الناحية الأمنية."

ويتشكل المجتمع الاسرائيلي كسائر المجتمعات الاخرى من طبقات، فهنالك طبقة بورجوازية كبيرة وطبقة بورجوازية متوسطة وأخرى صغيرة، وفي المقابل طبقة عمالية وفلاحية وفئات "هامشية" أو ما يسمى بالبروليتاريا الرثة، وهي التي أخرجت من جوفها حركة الفهود السود في مطلع عام ١٩٧١، إلا أن هذا المجتمع يتميز عن المجتمعات الأخرى يكونه مجتمع مهاجرين ومستوطنين، كان ولا يزال يعتمد على الهجرة

والاستيطان. والأمر الذي يسترعي الانتباه والاهتمام معا هو أن وحدة التناقضات القائمة في المجتمع الاسرائيلي لا تكمن في عامل الصراع الطبقي بقدر ما هي كامنة في عامل الصراع الاثني الطائفي، ذلك أن التقسيم الطبقي يقابله تقسيم اثني طائفي رئيسي، يهود البلدان الغربية) أكثريتهم الساحقة من يهود شرق أوروبا – أشكناز) ويهود بلدان آسيا وأفريقيا أكثريتهم الساحقة من البلدان العربية- اسفاراديم). وتتوزع الاكثرية الساحقة من أبناء الطائفة الأولى على مجموعة من الطبقات العليا في المجتمع، بينما يتوزع سواد أبناء الطائفة الثانية على مجموعة الطبقات الدنيا.

أي أنه إذا ألقينا نظرة على الهرم الاجتماعي القائم في اسرائيل نرى أن الطبقة الفوقية منه قد استقطبت الاكثرية الساحقة من أبناء الطوائف الغربية، وأن الطبقة التحتية منه قد استقطبت الاكثرية الساحقة من أبناء الطوائف الشرقية. من الجائز القول أن الهوة الاجتماعية القائمة في اسرائيل، ناجمة بالاساس عن عملية الصراع الطبقي، ولكن من الصحيح والمؤكد ان عملية استقطاب وتجسيد الطبقات قد جرت على اساس طائفي اثني ، لعب فيها العامل الاثني دوراً أساسيا، ولذا فان الهوة الاجتماعية القائمة هي بين أبناء الاشكناز كطبقة فوقية وبين أبناء الطوائف الشرقية كطبقة تحتية.

على أنه ينبغي ان لا يغيب عن بالنا وجود هوات اجتماعية اخرى إلى جانب الهوة الرئيسية، فالمجتمع الاسرائيلي الذي يحتضن مهاجرين قدموا من ١٠٢ بلد ويتكلمون ٨٢ لغة يعاني من الهوة بين المهاجرين الجدد والمهاجرين القدامى.

والشعور بالانتماء الاثني هو وليد التناقضات الكامنة في مجتمع المهاجرين والمتسوطنين، ولم يرافق هذا الشعور آباء اليهود الاسرائيليين الذي لم يقدر لهم المجيء إلى اسرائيل، بل يمكن القول أنه كاد يكون معدوماً لدى اليهود الموجودين في بقاع الأرض، إذ أن شعوراً كان يستحوذ على تفكير معظمهم، وهو الشعور بالانتماء اليهودي. أما في حالة قدوم الانسان اليهودي إلى اسرائيل فان الشعور بالانتماء الاثني يبدأ يعتمل في جوانحه، وهذا الأمر بمثابة انقلاب في حياته. فاليهود الرومانيون كانوا يعتبرون أنفسهم يهوداً أولاً، وكذلك الأمر يقال بالنسبة لسائر الجاليات اليهودية في البلدان المختلفة، أما في حالة المجيء إلى اسرائيل (مجتمع المهاجرين) فان اليهودي يتحول إلى روماني أو عراقي أو مغربي.. إلا أنه ينبغي التنبه إلى أن هذا الانقلاب يختلف من حيث الشدة بين الفئات المختلفة، فالفئات المسحوقة هي أكثر الفئات بالاحساس الوليد.

وقد مس الدكتور "اليكس فينجورد" هذا الموضوع في دراسة له حول "التغيير والاستمرارية في مستوطنة لمهاجري شمال افريقيا" بقوله" :مع أن الهوية اليهودية هي واقع اجتماعي ينطوي على مركزية في اسرائيل، الا اننا نجد إلى جانبها أنواعاً من الهويات الأخرى، ونلاحظ أن الهوية اليهودية، وهي بمثابة أمر بديهي، تبدأ تأخذ وزناً ثانوياً فقط. وهكذا يحدث أن اليهود في مراكش يعتبرون "يهوداً" بينما في اسرائيل يتحولون إلى" مراكشيين."

وبعد انتهاء موسم الانتخابات يغدو مسقط رأس الانسان وخاصة أبناء الطوائف الشرقية، موضع سخرية من قبل الفئات الأخرى. فعندما يتوجه يهودي من أصل مراكشي لقضاء حاجة له في مكتب حكومي، ويصرخ في وجه الموظفين الأشكناز في حالة عدم تلبية طلبه، فإن التقليد الدارج هناك الذي يتفوه به الموظفون الاشكناز: "لماذا يصرخ هذا المغربي؟."

وقال افرايم سيفيلا في كتابه "وداعاً يا اسرائيل:"
"إن اسرائيل بلد يختنق، إنها منقسمة إلى عشرات الطوائف الموزعة جغرافياً. فالألمان اليهود في "الخالصة"، والبلغار في يافا، والكوكاز في اللد والرملة، والبخاريون في "شمش" أما اليهود العرب فهي منطقة تسمى "ماباروت" كذلك تطلق على كل طائفة صفة معينة تشتهر بها .فاليهودي التركي يسمى باليهودي الأكول، واليهودي الروسي بالسكير، واليهودي المغربي بالقذر... ولا يمكن المرء أن يشيح بنظره عن عناوين كبيرة تطالعه في صحف الصباح "اطردوا اليهود الشرقيين."

"ماذا ستكون النهاية؟
-سنصبح هنا شعبين، شعب الأسياد وشعب الخدم"

يمثل هذا الاحساس المتزايد بالانتماء الاثني نتيجة اتساع الهوة الاجتماعية تتولد مثل هذه النكتة – الاتجاه.

ويرى البروفيسور "يوحنان بيرس" أستاذ علم الاجتماع في جامعة تل أبيب أن الهوة بين الطوائف الغربية والشرقية في اسرائيل شبيهة إلى حد ما بالهوة القائمة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة.

والحقيقة أن أبناء الطوائف الشرقية يشعرون برائحة التمييز عندما تطأ أقدامهم اسرائيل. حيث يبدأ الصراع بين التصور والواقع.

ولعل النكتة التي تصور مشاعر الاشكناز عن الاسفاراديم هي أبرز مثل على ذلك. فقد سأل أشكازي زميلاً له عن الاسفاراديم فقال له: "هم الذين يحاولون أن نكون نحن مثلهم."

ولكي ندرك التمييز الواقعي غير المكتوب الناجم عن البنية الهرمية الفريدة من نوعها للمجتمع الاسرائيلي لا بد من طرح صور للاستشهاد وللتدليل على التمييز، صورة المهاجر الروسي الذي ينال بيتاً ومنزلاً وفي بعض الأحيان توفر له الحكومة حانوتاً بواسطة سلطات الاستيعاب. ولكنه على الرغم من ذلك وكما تقول النكتة الاسفارديمية يحتج... على أن الحكومة لا توفر له الزبائن... وفي المقابل صورة أولئك الذين يقولون" لقد أعطونا بصعوبة بالغة سريرين ولكن اذا كنت روسياً فانهم سيعطونك كل شيء، انهم يستلمون شقتين، شقة لهم، والأخرى للكلب ."

"نقاتل من أجل من؟
-من أجل الاشكناز"!

نكتة اتجاه حادة بلا ريب. وعلى الرغم من نجاح الجيش الاسرائيلي في الحفاظ على التكتل فيه، فان التناقضات الاجتماعية الاثنية تعكس نفسها فيه وتؤدي في بعض الاحيان إلى التصادم والاشتباك بالايدي بين صفوفه "فكثيرا ما يحدث "كما يقول عمران بن كوهين الذي خدم في سلاح المظليين "أن تقع اشتباكات بين الاشكناز والاسفاراديم."

"عندما آكل الطين...
-قل أنني آكل العسل"!

نكتة مريرة تملؤها روح الاستهزاء.
أو:

"إننا اسرائيليون وهم اسرائيليون فلماذا يكرهوننا؟
-لأننا اسرائيليون"

فظاهرة الكراهية في اسرائيل هي نتيجة التركيبة الفريدة للمجتمع الاسرائيلي، فقد نمت هذه الكراهية وترعرعت تحت ظلال التمييز. وكراهية أبناء الطوائف الشرقية للغربيين ناجمة بالأصل عن الواقع الاستغلالي الذي يرزحون تحته، أما كراهية الجانب الآخر فهي نابعة بالأصل عن النظرة الاستعلائية المشفوعة بالعنصرية.

يقول البروفسور يعقوب لورخ" ان الاغتراب في المجتمع الاسرائيلي وانعدام التضامن مع الغير ومع المجموع هما نتيجة للغضب المستمر. ان الاسرائيلين مؤممين منذ طفولتهم. ليست هناك كرامة واحترام للانسان الفرد، كفرد. وما وجه الغرابة في ان انسانا كهذا ينشأ دون أن يحترم الغير؟ انه لا يعتبر الغير، لأنه منذ حداثته لا يعتبرونه كانسان له صفاته التي تميزه عن الآخرين."

وقال بروفيسور في علم النفس طلب أن يبقى اسمه سراً" اننا مجتمع هستيري، يعمل في ظروف ضغوط قاسية، ومن الصعب عليه موازنة الامور ورؤية أبعاد الزمن والثقافة رؤية صحيحة. هذا ما أسميه انعدام القدرة على رؤية الامور بمنظار عريض، ببعد زمني وثقافي، وبمعرفة التحديدات وباحساس الاتزان."

أما الدكتور موى فارقي استاذ الرياضيات والاحصاء في جامعة بارابلان والمهاجر من السوربون في باريس عام ١٩٧٢ فيقول :إن ما قد برز ومسني على الفور هو الفساد الكبير على جميع المستويات الادارية في الدولة."

أما المواطنون العرب في الارض المحتلة فهم مستهدفون لتذويب كيانهم القومي تمهيداً للقضاء على وجودهم العربي ذاته في البلاد".

ويقول حبيب قهوجي في فقرة أخرى" كما أن السلطات الاسرائيلية عاملت العرب كمواطنين من الدرجة الثانية، ومع انهم يقومون بدفع جميع الضرائب المفروضة عليهم ، واحيانا يدفعون أكثر مما يستحق عليهم نتيجة لتقديرات عالية، ومع انهم يؤدون جميع التزاماتهم كمواطنين في الوطن ما عدا الخدمة العسكرية، فان نسبة الوظائف التي يشغلونها في البلاد هي فقط ١،٥." %

ويتابع حبيب قهوجي فيقول" :وفي ميدان التعليم تستهدف سياسة الحكومة تحطيم شخصية المعلم والتلميذ، حتى يتخرج الجيل الناشئ اتكالياً لا مبالياً، لا يحس بأدنى رابطة تربطه بمجتمعه... وأكثر من ذلك فان السياسة التعليمية ترمي ولا شك إلى قطع كل صلة تربط الشباب العربي في اسرائيل بالأمة العربية والشعب الفلسطيني الذي هو جزء أصيل منهما. وتريد للأقلية القومية أن تندمج وتذوب في الكيان الصهيوني."

ويعترف الدكتور يوحنان بيريس المحاضر في جامعة تل ابيب بـ" أن البعد الاجتماعي عن العرب كبير وحاسم، والاستعداد لاقامة علاقات مع العرب منخفض جدا لدى جميع الطبقات، وجميع المستويات الثقافية، ويرفض أبنا الطوائف الشرقية العرب أكثر من رفض الاشكناز لهم بحجة "نحن نعرف من هم العرب، عشنا بينهم وعانينا منهم .!!"**ويؤكد الدكتور بيريس"** **أن رفض العرب لليهود أقل من رفض اليهود للعرب."**

أما شمويل طوليدانو فيقول في حديث له مع صحيفة هارتس" :إن التجربة مع عرب اسرائيل تفيد أن رفع مستوى المعيشة والثقافة ليس بديلا عن الرغبات والمطامح القومية"، "انهم يواجهون أيضاً مظاهر التعصب القومي من أوساط واسعة من السكان اليهود **"و "يعمل يوميا نحو ٥٠ ألف عربي في المشاريع اليهودية، في المدن اليهودية، لكن العامل اليهودي غير مستعد لمساعدته ومصادقته واعتباره شريكاً له في رغباته وحتى في نضاله المهني وان الاتجاه القائم عند السكان اليهود هو المحافظة على الحواجز بينهم وبين الاقلية العربية.**

وتصف "معريب" "ارتباك العرب في اسرائيل في تحديد هويتهم بقولها" :ان معضلة العربي هي: كيف يكون اسرائيليا جيداً، وكيف يكون عربياً جيداً، وفي الوقت نفسه مواطناً مخلصاً للدولة."!

وقالت "معريب" :"ان الأقلية العربية تعيش في ظل خوف الأكثرية من أن تصبح الأقلية أكثرية."

وعن المثقفين العرب خريجي الجامعات الاسرائيلية تقول "معريب" :"ان قصة المثقف العربي تبدأ وتنتهي بخيبة الأمل. فهو يتعلم، ولكنه ليس متأكداً من أنه سيتمكن من العمل في مهنته. وسيضطر إلى العمل في مهنة لم يتعلمها ولم يرغب فيها. لقد بدّل مواضيع دراسته بعد أن أدرك أن السوق الاسرائيلية لن تسمح له بممارسة المهنة التي اختارها في البداية."

ويتقدم ميخائيل أساف ليحسم المسألة" :علينا ألا نخدع أنفسنا. إن أكثرية المثقفين العرب هم ضد الدولة، والمس بالدولة هو رد فعل على أعمال الظلم والتمييز التي تمارسها الحكومة."

ومجتمع اسرائيل الغريب في تكوينه والمؤلف من شرائح اجتماعية مجمّعة هو اذن مجتمع مثالي لانتشار النكتة والاشاعة على حد سواء. مجتمع اللا أخلاق الانسانية.

وهناك نكتة اسرائيلية عن القانون:

-القانون!
-الذي لي لي والذي لك لي"

فهذا المجتمع الهجين للعنف فيه دور كبير اضطر صحيفة عل همشمار لأن تقول" :ان حياتنا آخذة في الامتلاء تدريجياً أكثر فأكثر بالفوضى الهمجية وبلاهة الحواس وتلاشي المنطق وتقدير العنف والقوة واستعمالهما، باختصار تمت علينا عملية تحول نحو الفظاظة والعنف."

يقول الدكتور مناحم أمير من قسم علم الاجرام في الجامعة العبرية في القدس" في البلد تاريخ من الخضوع للضغوط والعنف، فالعنف دائماً مجد، كما يساعد الضغط في كل حالة، تقريبا، على بلوغ الهدف. ويشعر المواطن في اسرائيل سواء أكان محقاً أم لا، كأن وسائل الاحتجاج الشرعية مغلقة أمامه. لذا يجد نفسه أمام طريقين: الأولى التوجيه نحو "النوافذ العليا" عن طريق العلاقات ، لكي يحقق أهدافه، والطريق الأخرى استخدام العنف."..

ويقول الدكتور يوحنان فاينر، الاستاذ في كلية العلوم الاجتماعية في جامعة تل أبيب" يفعل الناس ما يعتقدون أنه لمصلحتهم... والواقع الأليم هو أن طريق العنف عندنا تؤدي، أحياناً كثيرة، إلى النتائج المنشودة."

أما الدكتور عوزير شيلد الاستاذ في علم الاجتماع فيرد ظاهرة العنف إلى احساس المواطن الاسرائيلي بأنه ليس شريكاً في صنع القرارات ويقول" :لدى المواطن اليوم في دولة اسرائيل احساس بأن ليس له أو لأعماله أي تأثير في معظم نواحي الحياة، باستثناء الامور الشخصية. فهو بمثابة لولب صغير، ودائماً "هم" الذين يقررون من أجله. والواقع أن هذا الاحساس بعدم السيطرة على ما يجري حوله، يؤدي أحياناً كثيرة إلى تفجرات عنيفة. والأمر المؤسف أن الفرد يجد لنفسه دائما براهين على أنه محق، فهو ان لم يصرخ أو يكسر الطاولة، لن يحصل على شيء. وهكذا تولدت دائرة مفرغة من الصعب التحرر منها."

وقال الاستاذ بنيامين نيوف المحاضر في كلية العلوم الاجتماعية بجامعة بارايلان" على الصعيد الاجتماعي هناك اهمال كبير قائم في البلاد، سواء من جانب العائلة تجاه الطفل أم من المجمتع تجاه العائلات التي تعيش فيه، ويبرز معظم ظواهر العنف عندما لا تقدم خدمات الشؤون الاجتماعية والصحة والاسكان في شكل جيد . وفي جو كهذا يصل اناس كثيرون إلى وضع يقولون فيه انهم لا يملكون شيئاً يخسرونه "**ويضيف الاستاذ نيوف** " ومثل هؤلاء لناس مشحونون بمقدار هائل من الغضب والسخط والاحباط."

ان نكتة الأمل شنت عليها الحكومة الاسرائيلية حملة قوية لأنها تشكل مسماراً حاداً يدق أعصابها.

-ماذا تأمل؟
-آمل ألا أضطر إلى استخدام ما تعلمته في الجيش..."

وحول هذه النكتة قال الكاتب يهوشع سوبول" ان تربية الجمهور الاسرائيلي وتثقيفه على العنف تجاه الخارج، أي تجاه العرب، لا بد أن يرتد نحو الداخل، خصوصاً أن هناك شريحة كبيرة في اسرائيل تحس بالغبن اللاحق بها. ولا تجد تنفيساً عن وضعها إلا باستخدام ما كانت قد تلقنته."

مع تحيات
منتدى حديث المطابع
موقع الساخر
www.alsakher.com